جَرِيمَة

في

بطرسبرج

وقصص أخرى

عبد الرحمن كسوى

مجموعة قصصية: جريمة في بطرسبرج
تأليف: عبد الرحمن كمون
الناشر: أدباء ٢٠٠٠
الطبعة الأولى ٢٠١٨
رقم الإيداع:
تصحيح لغوي: مدحت رأفت
إخراج فني: مدحت رأفت
تصميم الغلاف: محمد علي

حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع-٢٠١٧

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه أو اختصاره بقصد الطباعة واختزان مادته العلمية أو نقله بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من الناشر مقدما

دار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع
نشر – توزيع
0020/01020812429 – 01099654718

اهداء

إلى أبي الحبيب ..

تعجز كلماتي الفقيرة عن وصف حبي وامتناني لَكَ، أطالَ اللهُ في عُمرك على طاعته، لِتَبقَى شَمعَة تُضيءُ حَياتِي ..وَمَنَارة تُنِيرُ طَرِيقي ..

إلى كُل مَن عَافَر وَجَاهَد فِي تَحقِيق حُلمُه، إلى كُل مَن سَارَ فِي طَرِيقه بِدون التِفَات ..

إلى كَل مَن أبَى أن تُفارِق رُوحَه جَسَده دُون أن يُقَدِمَ شَيئاً لِدِينه.. وَوَطَنه

إلى الأحِبَاء ..

عدلي عبد الوارث ..عبد الرحمن غانم ..إسلام أحمد..

أحمَد أشرَف..عبد الله صلاح..

- هَل لَدَيكَ أصدِقَاء ؟
- نعم بالطبع ..
- ولكِني لا أراكَ تتحدث مع أحد، فَمَن أصدِقائك ؟!
- أصدقائي لا يتحدثون ..
- نعم ؟!!
- كَمَا سَمِعْت .. لَيسَ لدَيَّ أصدِقاء مِنَ النَوعِ الَّذِي يَتَحَدَث ..
- هَل تَهذِي!
- .....
- إذًا، عَرِفنِي بِأصدِقائك الَّذِين لا يَتَحَدَثُون ..!
- حَسَنًا، زُرنِي فِي مَنزِلِي فِي أيّ وَقْت وَسَأُعَرِفُكَ بِهِم ..
- لا تَجعَلنِي أفقِد عَقلِي ! هْل يَتَوَاجَدُونَ عِندَك دَائِمًا ؟!!
- تَعالَ وَسَتَعرِف كُل شَيْء ..
- أخبرني الآن !!!

- حسنًا كَمَا تُحِب، لنبدأ بِصَدِيقي المُفَضَل " مُصطفى صَادِقِ الرافعي"
- .....
- وبعد ذلك، مُصطفى لُطفي المنفلوطي، وبعد ذلك ..
- وَلَكِن !! هَؤلاءِ مَاتُوا مُنذُ زَمَن !
- بَل مَاتَت أجسَادُهُم، أما عبق أرواحُهُم فَعِندِي فِي مَنزِلِي ..!

- .....
- إنَّ دَفَّتَي كِتَاب، بِمَثَابَة بَوابَة زَمنِية، تَنقُلُني إلَيْهِم، أراهُم يأكُلون، يشربون، يُسافرون، ينامون، وأسمَعهم أيضًا يتحدثون ..!

لم يَعِش مَن لَم يَذُق طَعمَ الوِحدَة ..الوِحدَة نَكهتها لَذِيذَة جِدًّا، جَرِب أن تَكونَ وَحِيدًا مَرَّة، سَتَجِد الْكُتُب تُنَادِيكَ ! " هَلُمَ إلَيْنَا " سَتُدرِك وَقتهَا أنَّك لَسْتَ وَحِيدًا عَلى الإطلاق .

ستَجِد أن منَ يُصَادِق الْبَشَر هُوَ الْوَحِيد، جَرِب أن تَنعَزِل، اترُك الناس، أعِدُكَ سَتَجدِ فَارِقًا .

جريمة في بطرسبرج

مالَ مِيزانُ النهار، وانحدرَتِ الشَمسُ إلى مغرِبها، ودَبَّ الظلام في الأضواء دبيب البَغضَاء في الأحشاء .

في إحدى مكاتِب التحقيق بشَمال مدينة كراسنوي سلو، جلَس رَجُل ثلاثيني متوسِط القامة خلف مكتبه، عيناهُ تمِيلان للزرقة أكثر منها للسواد، يرتدي بذلة سوداء مِن طراز " التوكسيدو " يجلس أمامَهُ مُباشرة شاب عشريني قصير القامة، يرتدي قميصًا وبِنطالاً مِن النوع الرَخيص، أخذَ الثلاثيني يُقَلِب بيده في بعض الأوراق، وتحدث دون أن يُغَير معالم وجهه القاتِمة:

- أتدري يا ليو لمَ اخترتُ هذا العَمَل ؟ لن أُنكرَ عليك أنه من أجل المال، ولكن هُناكَ سَبب آخر .

واستكمل:

- الشُهرة يا ليو! الشهرة، الواحد مِنا يرى مشهوري الناس، فتغلي بداخله نارُ الحقد، لماذا كُتِبت الشُهرة على أعناق هؤلاء ؟ هل خرجوا مِن بُطون أُمهاتهم مشهورين ؟ الإنسانُ مِنا يُحِبُ أن يكون لامعًا، تُلاحقهُ الأنظار أينما ذهب، لا أن يكون مغمورًا بداخِل نفسه، أبلهًا مأفونًا، يمُر بجانب الناس فيقولوا "أنظروا هذا البائس !" الواحد منهم يمُر بسيارته مُسرِعًا قليلاً فَيُقال "من هذا المجنونُ النَزِق ؟"

تلكَ هيَ الحياة يا ليو، وفي المُقابل، عندما يدخُل المشهور بين جُموع الناس تتسابق الأنظار إلى رؤيته ! تُفسح له الطُرُق، يلهث الناس وراءه لِيُسلموا عليه، كما يلهث الكَلبُ أمام طعامه ! ألستُ مُحِقًا ياليو ؟!

– بلى ياسيد أليكس .

****

في شمال مدينة بطرسبرج، وعلى مقربة من نهر نيفا، يقع قصر الأمير"تُوسان بُطرُس" أحد الأُمراء الباقين من الأُسرة المُؤسِسة للمدينة..

كانت الشمس قد طَلَعَت مِن مرقدها، ولكنها لَم تؤَثِر اليوم على طَقس بطرسبرج، فقد غمرت الثُلوج جميع ضواحي المدينة بلا استثناء، المنازل والمباني شاهقة الارتفاع وحتى الطرقات والشوارِع، مما أسفر عن توقف وخُمول في حركة النَقل، ومع ذلك كانت عربات الأُمراء ورجال الأعمال وكِبار المدينة لا تتأثر بشيء، فهيَ مُزَوَدة بتِقنيات حديثة بحيث لا يؤثر فيها ولا يُعَطِلُها عن السير شيء .

كان قصرُ " تُوسان " لا يسكُنُهُ غير الأمير توسان وزوجته "ماريا" وابنَته " لينا " التي لم تبلغ العاشرة من عمرها بعد، وسائِق العَرَبة " بَرَنقَش " الذي يسكُن وزوجته في منزل صغير مُرفَق بالقَصر .

في صباح أحد الأيام ، كانت أشعة الشمس قوية كفاية لإذابة قدر كبير من الثلوج اقتربت عَربة مُسرِعة مِن قصر توسان، ووقفت أمامه فَفُتِحَت لها

الأبواب، وخرج الأمير توسان وزوجته ماريا، وقَبل أن يصعدا إلى العَرَبة، استدعى الأمير توسان السائِق بَرَنقَش قائلًا له:

- لا تنسى أن تُحضِر الآنسة لِينَا مِن المدرسة اليوم، سنقوم بزيارة قصيرة إلى قرية "بوشكين " لن نتأخر، أظُن أنك تعلم ما عليك فعله في غيابي، ولاتنس إحضار الغداء للآنسة لينا، هل فهمت؟

أجابَ برنقش بابتسامة بشوشة اعتَلَت وَجهه:

- فهمت ياسيدي .

انطلقت العَرَبة طاوية الأرض على عجلاتها طيًا .

****

بعد ساعتان، وعلى بُعد عشرة أميال من قصر توسان، كانت المدرسة الإبتدائية تقع، خرجت جُموع الأطفال من باب المدرسة العملاق كسَرب طيور يُحلق في السماء، فور إعلان انتهاء اليوم الدراسي، الجميع يخرُج مُسرِعًا، وكأنَها ساعة الخروج من السِجن ! ووسَط حشد الأطفال الخارِج من المدرسة كانت الطِفلة لينا، كانت عادتُها كُل يوم أن تخرُج لتَجِد العَرَبة أمامها مُباشرة، فتركب في هُدوء .

خرجت كالعادة لتجد العربة ليست بمكانها، فأخذَت تبحث بعينيها فوجدت عربة واقفة على بُعد ليس بكثير مِن مكان العربة التي أَلِفَته، فهرعت إلى العربة واعتلتها في هُدوء، لتنطلق العربة فور ركوبها.

****

– أقسم لَكَ ياسيدي ! لقد ذهبتُ في المعاد ولم أتأخر، ولكني لم أجد الآنسة لينا !

نظر الأمير توسان إلى برنقش نظرة شزراء وصاح فيه مُشيرًا بيده إلى الخارج:

– اذهب أيُها اللعين من هُنا ! ابحث في كُل أرجاء بطرسبرج ! أريد ابنتي هُنا قبل أن يَحل الليل، أخرج !

خرج برنقش هائِمًا على وجهه وامتطى العربة وانطلق، أمر الأمير تُوسان كُل حَرَس القصر أن يبحثوا أيضًا عن الآنسة لينا ..جلس على مقعده مُطرِقًا رأسه إلى الأسفل ووضع يديه على رأسه وتنهد تنهيدات مُتتالية، وفي المقعد الذي أمامه تجلِس امرأته السيدة ماريا، ولا تزالُ تصرُخ وتبكي بُكاءَ الشيخ على عهود صِباه، حتى كادت تتلف نفسها .

في صباح اليوم التالي، ثمَة جواد يجري مُسرِعًا ناحية قصر توسان، وعلى ظهره أحدهم يحمل رسالة، ومع بضع طرقات على الباب، فتح الأمير توسان، أخذ الرسالة من الرجل ودخل القصر، قابلته ماريا بوجهها الشاحب وشعرها المُشَعَث:

– هل هُناك أخبار عن لينا ؟

لم يرد توسان، بل أخذ يقرأ الرسالة لبضع ثواني ..

– حادثة اختطاف !

شهقت ماريا شهقة كادت أن تقتلع روحها، أخذ توسان يطوي الرسالة ويضغط بيده عليها بغيظ:

– السافلون ! يُريدون أن يُساومونا بابنتنا مُقابل مائة مليون روبل !

اعتلى وجه ماريا شبح ابتسامه وصاحت:

– إذاً ابنتي بخير ! ابنتي، لقد تجرعت كأس فراقك، لقد أبى الدهرُ إلا أن يعبث في وجهي... ابنتي ! لقد حزنتُ عليكي من سُوَيداء قلبي، حُزنًا لم أحزن قبله أبدًا، لقد كابدتُ الكثير مِنَ الآلام والأحزان هذه الليلة ! فلم أتخيل يومًا أن تبيتي بعيدًا عن صدري!

وأخذت دُموع ماريا تنهمر كالسيل المُنجَرِف، جلسَ الأمير توسان يُفكر مَلِيًا في الأمر، نظر إلى ماريا المنكوبة وصاح :

– يجب أن نستعين بأقوى المُحَقِقِينَ في بطرسبرج !

****

دخل السيد أليكس إلى مكتبه وفي يده جريدة إخبارية، أخذ يُقَلِب صفحاتها حتى استوقفته إحدى الصفحات، أخذ يقرأ فيها ويبتسم أكثر فأكثر .

بعد ساعات، طُرِقَ باب السيد أليكس بضع طرقات خفيفة، هَرع أليكس ليفتح الباب، فوجد رَجُلًا يبدو عليه أنه جُندي أو ماشابه، تحدث الرجُل:

– المُحَقِق أليكس ؟

ابتسم السيد أليكس وأشار بيده ناحية الداخل:

– تَفَضَل .

فدخَل الرَجُل ولكنه لم يجلس وتحدث سريعًا:

– جِئتُ مِن قصر الأمير توسان، لابُد أنك قرأت خبر اختطاف الآنسة لينا في الصُحُف اليوم ..

غيَر أليكس علامات وجهه إلى الحُزن وقال بأسى:

– أجل، اللعنة على المُختَطِف الجَشِع! أيخطِف طِفلَة !

تحدث الرجُل:

– ما أودُ إخبارَك به يا سيد أليكس، أنك مُكَلَف بالتَحقِيق في هذه القَضِية بتكليف رسمي مِنَ الأمير توسان.

عقَد أليكس حاجبيه مع ابتسامه خفيفة وقال:

– أنا رهنُ إشارة الأمير توسان !

****

بعد رحيل الجُندي من عند السيد أليكس، ارتدى أليكس ملابسه الرسمية كمُحَقِق، وأخذ يُعِد تسريحته المُفضلة وينظر في المرآة ويبتسم، ثم اعتلى عربتهُ القديمة واتجه ناحية مدينة بطرسبرج، ولكن العربة كانت تسير بصُعوبة بالغة، فبالرُغم مِن أن الطقس في بطرسبرج قد تحسَن، إلا أنه في

مدينة سلو كان صعبًا للغاية، لذلك فإن طُرقات المدينة كانت لا تزالُ مغمورة بالثلوج .

وبعد مرور أربع ساعات، وصل السيد أليكس إلى شمال بطرسبرج، وقد أهلَكه التعب والبَرد الشديد، كان بانتظاره عند باب القصر الأمير توسان .

قفز أليكس من عربته بعدما أوقفها أمام باب القصر، قابله الأمير توسان بوجه المُستغيث الواهِن وقال له :

- يا أهلا بالمُحَقِق البارِع الذي علا صِيتَهُ جميع أنحاء بطرسبرج، تفَضَل .

ابتسم له أليكس وسلَمَ عليه ودخلا .

****

- إذًا فإنهم يطلبون مائة مليون روبل!

قالها السيد أليكس وهو يقرأ الرسالة، لتتحدث السيدة ماريا بصوتٍ مُتهالِك:

- أيُها المُحَقق، أُريدُ ابنتي ! سندفع أي شيء، ولكنني أُريدُ ابنتي فقط.

ابتسم لها المُحَقق أليكس وتحدث:

- اطمئني يا سيدة ماريا، سنُحاول استرجاع الآنسة لينا بأي شكل من الأشكال.

أطبق الصمتُ على المكان لِبضع دقائِق، فقطعة السيد أليكس:

- حسنًا، لقد أعددتُ خُطَة مُحكمة، المُجرِم طَلَبَ في الرِسالة أن تكون المساومة على جسر نيفا، في مُنتصف الليل، يوم اكتمال القَمر، أي بعدَ غَد، والمُفتَرَضُ أن تكون الآنسة لينا بحوزتهم، وبحوزتنا النقود المطلوبة، الخُطة أنني سأجعل المكان مُراقَب بالكامل، أي أنه سيكون مليئًا بالجنود، حتى يتسنى لنا القبض على المُجرم بكل سهولة .

تحدث السيد توسان:

- وإذا فشلت هذه الخُطة ؟

فصاحت السيدة ماريا في زوجها وانهارت باكية:

- كيف يكون لك قلب وتقول باحتمالية الفشل! كيف؟؟ أجبني!!

وقف المُحقق أليكس وقال:

اعتمدوا علي فقط، كُل شيء سيكون على ما يُرام، إلى اللقاء .

****

في صباح اليوم التالي، وعلى جسر نيفا شاهق الارتفاع، كان الأمير توسان يتفقد الترتيبات التي أعدها المُحَقِق أليكس للقبض على الخاطف،كان من الصعب إخفاء الجنود على الجسر، فقد كان مكشوفًا ليس عليه شيء صالِح للاختباء، فخطط المُحقق أليكس أن ينقسم الجنود إلى قِسمَين ..

قِسمٌ يختبيء بالأشجار التي بأول الجِسر، والقِسم الآخر يختبيء بالأشجار التي بأخر الجِسر، على أن تكون المُساوَمة بمُنتَصَف الجِسر، وبهذا يكون المُجرم قد حُوصِرَ بَينَ فَكَي الأسد .

وبعد أن انتهوا من الترتيبات للخُطة، سأل الأمير توسان المُحقق أليكس:

- سأكونُ موجودًا وقت المُساومة أليس كذلك ؟

أجابه المُحقق مُسرعًا:

- كلا كلا سيكونُ الأمرُ خطيرًا جدًا، فرُبما تحصُل بَعض المُناورات إن كان المُجرم قد خطط للمُهاجمه .

حركَ الأمير توسان رأسه موافقًا كلام المُحقق، فتحدثت زوجته السيدة ماريا من وراء ظهره:

- كلا يجب أن أكونَ موجودة غدًا، فلن أتحمل الانتظار في البيت.

استدار لها السيد توسان ووضع يده على وجهها ومنحها قُبله وابتسم قائِلًا:

- عزيزتي أنا أُقَدِرُ مدى حرصكِ على ابنتنا، ولكن الأمر جد خطير، كما أننا يجب علينا الاعتماد على المَحقق أليكس حق الاعتماد.

ونظر إلى المُحقق وأردف:

- أليس كذلك أيُها المُحَقِق ؟

أجابة أليكس:

– بلى .. بلى ياسيدي .

أوشكَ القَمَرُ على الاكتِمَال، واقترب الليلُ مِن مُنتَصفه، وقف السيد أليكس في مُنتصَف الجِسر، حاملًا بيده حقيبة النقود، وبعد دقائِق، اقتربت عربة سوداء ودلفت نحو الجِسر، كانت تسير بِبُطئٍ جدًا، مما جعل الجُنود الذي كانوا يُراقبون في توتر أعصابهم تهدأ قليلًا، اقتربت العربة بتلكؤ رهيب من السيد أليكس، ووقفت العربة، هبط منها شاب عشريني لم تظهر ملامحه كثيرًا، كان يُمسِك بيده الطِفلة لينا، أعطاها للسيد أليكس وأخذ حقيبة النقود دون أن ينظر إلى وجهه! وعاد مُجددًا في هدوء إلى عربته، وانطلق بسرعة رهيبة ! أخذ يأكُل الطريق أكلًا !

وبعد استيعاب الجُنود ماحصل، أخذوا يركضون وراءه بأقصى ما لديهم من سُرعة، ولكن هيهات! فقد غرقت العَربة بين أحشاء الظلام، واختفت عن الأنظار .

****

عاد السيد أليكس إلى قصر توسان وبحوزته الآنسة لينا، وفور أن دخلا من باب القَصر، هرعت السيدة ماريا إلى ابنتها لينا واحتضنتها كثيرًا ولا زالت تبكي وتنتحب وتصرخ:

– كُنتُ أترقب حُضورِكِ يابنتي تَرَقُب المقرور أشعة الشمس الحارة، لماذا عبث الدهر بنا كُل هذا العَبَث يابنتي ؟ أويختبرنا ؟

أويحسَبُ أن بين جنبينا ذخيرة مِنَ الصَبر والاحتمال ؟ ما أصعب فراقك يابنتي ..

وأخذت تبكي أكثر وتتفصد دموع الفرح والغِبطة مع على جبينُها، أخذ الأمير توسان المُحقق أليكس مِن زراعيه وسأله:

- هل قبضتُم على المُجرم ؟
- أعتذر يا سيدي، فإن المُجرِم قد خَان أنظارنا وَهَرب على حين غفلة مِن جنودنا .
- اللعنة ! أتقولُ هذا في وجهي أيُها اللعين! ماذا يقول الناس؟ عجز الأمير توسان بُطرُس أن يقبض على خاطِف ابنته! عار! أغرب عن وجهي أيُها المُغَفَل !

****

- ياربي ! أصبح بحوزتنا الآن مائة مليون! هذا شيءٌ لا يُصَدَق! لقد كانت صفقة رابحة جدًا، سأفقدُ عقلي مِن فرط السعادة !لِمَ لا تُشاركني فَرحي يا سيد ..أليكس !

" تَمَت "

إذا عبثت الحياة

جَلَس الوالد بجانِب ابنته الصغيرة الواهنة، التي كانت مُستلقية على سرير المَرَض

كان جسدُها ككوب من الماء الساخِن، لم يتركها المرض مُنذُ بضعة أشهُر أخبرهم الأطباء أنها ينبغي أن تُجري عملية في قلبها! وضع والدُها الفقير يديه على وجهه وأخذ يبكي في صمت، حركت عينيها التي كانت مُنتصبة صَوبَ سَقف الغُرفة، نظرت إلى والدها بعينيها البريئتين، لم تَكُن تعلم سبب بُكاءه، تحدَثَت بصوتها الرقيق :

– مالَكَ تَبكِي يا أبي؟!

أخَذَ يُكفكف دموعه بِسُرعة ويُجَفِفها بِمنديله القُماشي المُهترئ، نظر إليها بعينيه الحمراوتين، واعتلت قسمات وجهه ابتسامة يشوبُها الحُزن الدَفين، وتحدث بتوتر وتلعثُم :

– ههه ...أناا ....لا أبكي يا بنيتي، أنا أضحك، ألا ترَينَ الابتسامة مُعتَلِيَة وجهي؟!

وأشار بيديه نحو وجهه، ابتسمت الصغيرة وأغمضت جِفن عينيها بِتَلَكُؤ، وغرقت في نومها.

رمقَها والدها لبُرهه، فتَفَصَدت سُيول الدُموع مرة أخرى على وجنتيه .

استَيقَظَت الأُسرة على أسعَد الأخبار التي مرت بحياتهم، ثَمَّة مُتبرِع قَد جاء في الصباح ومعه ثَمن العملية، شَعرت الأُسرة ولِأولِ مَرَّة بِبصيص أمَل، يتسلل لقلوبهم

دَخلَ الوالدَينِ إلى غُرفة ابنتهُما والسعادة تغمُرُهما، وعلى وجهيهما معالم الفَرَح والغِبطَة، لَم يشاءوا أن يُوقِظاها من نومها، فجلسا بجوارها ولم يُغيرا موضع نظرهما عنها، أطبق الصمتُ عَلى المكان لفترة تَجاوزَت الساعَتَان، وأخيراً ! فتحت الصَغِيرَة عينيها الناعستان، ولا يزال والِدَيها يرمقانها في تَرَقُب ..

– فُرِجَت يا بنيتي ..!

تَحدث الأبُ بِصَوتٍ مُنخَفِض لَم تَسمعه الطِفلَة، حركَت شفتيها :

– ماذا تقول يا أبي؟ لَم أسمعُك، ثُم ما هذه الابتسامة التي أراها على وَجهَيكُمَا اليوم !

نظرَ الوَالِدَينِ إلى بعضهما وابتسما ابتسامة ماكرة، وتحدث الأب :

– سَتُجرين غدًا العَمَلِيَة، قولي للمرَض إلى اللقاء !

ضغط على آخر كلمة بأسنانه، لم تُبدِ الطِفلَة أي شيء، ولم تُغَير ملامح وجهها القاتِمَة، إلا أنها أخَذَت تَنظُر إلى سَقف الغُرفَة في ثَبات .

****

كان وصول الأُسرَة إلى المستشفى في تمام الساعة الثامنة صباحًا، أخبرهم

الطبيب أن العمليَة سَتَبدأ الساعة العاشرة، جلسوا في صالة الاستقبال منتظرين موعد العملية، لم يُغيروا موضِع نظرهم عن عقارب الساعة، التي كانت مُعلقة بالحائِط أمامهم، كان الوقت يمضي بِبُطء شديد، ودقات قلب الوالدان تتسابق مع عقارِب الساعة !

اختَرق صوتُ الطِفلَة الصمت الذي كان مُسيطرًا على المكان:

– أُمِّي ..أنا خائِفَة .. ماذا سيفعل الأطِباء بي ؟

رمقت الأُم ابنتها نظرة شفِقَة :

– لا تخافي يا ابنتي .. هذا يوم خلاصك مِن هذا المَرَض اللعين!
يجب أن تعلمي أن اليوم هو يُومُ سَعدِك .. فقد ذَهبَ الشَقَاء !

كان والدُها قد غرِق في ذكرياته، يسمع صوت الطبيب الذي خرج من غرفة العمليات يُبشِره :

– مُبارك عليك الطِفلَة.

إن أول مولودٌ للرَجُل يكون له بريقٌ خاص، إحساسٌ لن يَشعُرُه إلا مَن مَرَ بِهِ، إحساسُ أن تكون ولأول مرة " أب " !
كانت سيول الذكريات تنجرف عليه بغزارة، يراها بين يديه صغيرة ... ثم تكبر وتكبر .. وهيَ لا تزالُ بينَ يَدَيه ! أخرَجهُ مِن شروده صوت الطبيب يُنادي :

– فلتأتِ طِفلَتُك الآن يا سَيدي، فقد حان موعد إجراء العملية

أمسكت الطِفلة بِيَدَيها الصغيرتين عباءة أمها، وجسدها يرتجف وقالت:

– لا أُريدُ أن أذهب معه، لا تتركوني وحدي !

صاحَ الطبيب :

– هيا ..ليس لدينا وقت لهذا !

أمسكت المُمرضة الشابة يد الطِفلة، وسحبتها ناحية غرفة العمليات، أفلتت يد الطِفلة عباءة والدتها وأخذت تنظر لها وهي تسير ناحية الغُرفة، كانت نظراتها تُوحِي بشيء غريب، إحساس حَلَّ على الأُم لَم تجد لهُ تفسيرًا ! جلس الوالدَينِ في صمت، وقد تسرب القلق إلى قلبيهما، كانت الثواني تمُر ببُطء شديد .

****

بعد تجاوز الوقت المُقرر للعملية، وقف الأب وأخذ يسأل المُمرضات:

– لم تنتهِ العملية بعد؟!

أجابتهُ إحدى المُمرضات :

– لم يتبقَ إلا القليل ..

ظَل يسير ويدور في الصالة بتوتر، وزوجته تنظر إليه، هَمَّت أن تتفوه بشيء ولكنها لم تكُن قادرة على تحريك شفتيها! فقد كان فكيها يصطدمان

ببعضهما بسُرعة شديدة! وفجأة، خرج الطبيب مِن غُرفة العمليات بِخُطى سريعة نحو باب المستشفى، ولكنه نظر لوالد الطفلة قبل أن يخرج وتحدث:

– مُبارَك عليكما، لقد نجحت العَمَلِيَة.

شعر الأبوان بأبواب الحياة تتفتح لهما من جديد! شَعرَا أن الأمل قد عاد ينبض بعد طول انتظار! قال الوالد لزوجته:

– الحياة تبتسم لنا من جديد !

واتجها مُسرِعَين صَوبَ غُرفَة العمليات ..

****

يُمكنك أن ترى الكثير من الأشياء القبيحة في هذا العالم، ويمكنك أن ترى الكثير من المُفجِعات الأليمة، ولكن أن ترى ابنتك الوحيدة في هذا المنظر المُفزع! كأن براكينًا من الدماء قد خرجت من ثغورها، أذنيها وأنفها وفمها، هذا غيرَ بحر الدِماء الذي كانت الطِفلة غارِقَه فيه! ظل الأبوان واقفان في هَلَع، وتشنجت كُل أوصالهما:

– البقاء لله !

اخترقت الكلمة أذُنيهما، كانت كلمة قاسية جدًا على المسامع، كفيلة بأن تصم الآذان! أردفت المُمرضة التي كانت تقف عند جُثِة الطفلة:

– معذرَةً .. فقد كان مفعول "البنج" كثيرًا عليها، مما أدى إلى وفاتها ! هل أحمل الجُثَة معك سيدي إلى المشرحة ؟!

كانت الأُم قد شهقت شهقة وسقطت على الأرض مغشيًا عليها، أما الأب فقد أصبحت معالم وجهه قاتمة، جامِدَة، تحرك في ثبات إلى خارج الغُرفة دون أن يلتفت إلى جسد زوجته المُلقى على الأرض، أخذ يسير في شوارع المدينة، حتى بلَغ آخرها وتوقف، ثُمَّ نظَر إلى السماء لبُرهة، وتحرك مرة أُخرى، وعلى وجهه شبح ابتسامة لا يعلم سببًا لها!

تَمَت

أسوَد بَهِيم

فِي جَوفِ اللَّيل المُظلِم، وَقَد قَارَبَ مِن مُنتَصَفِه، استَيقَظَ "أحمد" الوَحِيد فِي مَنزِله الَذي سَئِمَ رَائِحَةً السُكُون، لَم يَكُن يَعرِف سَبَبًا لاستِيقَاظة، المَنزِل خَالٍ مِنَ الأنوَار، لَم يَكُن يُوجَد سُوَى لَمبَة (نِيونْ) وَحِيدَة أوشَكَت عَلَى التَلف، حَاوَل إضَاءَتها مِرَارَاً وَتِكرَارَاً، وَلَكِن جَمِيع مُحَاوَلاته بَاءَت بِالفَشَل، أضَاءَ مِصبَاح هَاتِفَهُ الصَغِير، خَرَجَ مِن غُرفَتَهُ، وَصَلَ لِلصَالَة، أُغلِقَ هَاتِفَهُ مُعلِنًا خِوَاء بَطَارِيَتَهُ، عَزَمَ أمرهُ عَلَى أن يَخرُج إلَى الشَارِع، عَلَّهُ يَجِدُ أحَدُ البَاعَة مُستَيقِظًا، يَبتَاعُ مِنهُ مِصبَاحًا جَدِيدًا، دَلَف بِصُعُوبَة نَاحِيَة البَاب، وَضَعَ يَدَهُ عَلى المِقبَض، حَرَكَهُ بِضعَ مَرَّات، رَفَضَ أن يُفتَح، تَذَكَر أنَّهُ قَد أغلَقَهُ بِالمِفتَاح (تَبًّا! المِفتَاحُ فِي الغُرفَة، لَم ألبِث أن وَصَلتُ إلَى هُنَا بِصُعُوبَة، سَأرجِعُ مُجَدَّدَاً ؟!)، وَصَلَ بِصُعُوبَة إلَى الغُرفَة .. فَتَحَ أدرَاجَ مَكتَبه بَاحِثًا عَن مَفَاتِيحَه،لَم يَجِدَهَا، حَاوَلَ أن يَضَع هَاتِفَهُ بِالشَاحِن،لَم يُفلِح، أدرَكَ أن الكَهرَبَاء عَاطِلَة عَنِ المَنزِل بِأكمَلِه، (أيُعقَل أن أُحبَسَ هُنَا ؟! المَفَاتِيحُ اختَفَت! وَهَاتِفِي مُغلَق! وَالكَهرَبَاءُ معَطِلَة، والمَنزِل بِأكمَلِه مُظلِم !).

أتَتْ بِخَاطِرِه فِكرَة، نَظَرَ لِلنَافِذَة، دَلَفَ نَحوَهَا، أخَذَ يَفتَحهَا، بَعدَمَا فَتَحَهَا نَظَر بِوَاسِطَتِهَا نَحوَ الشَارِع، كَانَ مُظلِمَا إلا مِن عَمُود إنَارَة صَغِير، ظَلَّ يُحَملِق بِعَينيهِ أرَكَان الشَارِع، عَلَّهُ يَجِد مَن يِنقِذَهُ مِن وَرطَتِه، لَمَحَ قِطَة صَغِيرَة سَودَاء قَابِعَة خَلفَ عَمُود الإنَارَة، شَعَرَ بِرَجفَة غَرِيبة تَسرِي بِجسَدِه، وَجدَهَا تَنظُر إلَيه بارتِيَاب، شَاحَ بِوَجهِه إلَى الدَاخِل بَعدَمْا مُلِئَ صَدرُهُ رُعبًا، مَا لَبِث أن أغلَقَ النَافِذَة، حَتَى تَسَلَلَ إلَى أُذُنَيهِ (مُوَاء) القِطَة بِالخَارِج، (هَل أفتَحُ النَافِذَة ؟ أليسَ مِنَ المُمكِن أن تَكُونَ قِطَّة مِسكِينَة فَقَدت أُمَّهَا؟ وَلَكِن كَيفَ

سَأُنقِذُهَا؟! أيُمكِن أن أجعَلُهَا تَقفِز إلَى غُرفَتِي؟ لِمَ لا وَأنَا قَاطِن فِي الطَابَق الأوَل حَسَنًا، سَأفتَح ..)

مَا لَبِث أن فتَح النَافِذَة وَكَانَت الصَدمَة! اختَفَى كُلُ شَيء!، الصَوتُ اختَفَى، القِطَّة اختَفَت، حَتى الشَارِع نَفسُه اختَفَى! (أينَ أنَّا؟! هَذَا المكان لَيسَ غَريبًا عَليّ، إنَّه..... إنَّهُ الخَلاء !!!!) صَوتُ (المُوَاء) أصبَحَ صَاخِبًا لِلغَايَة، أغمَض عَينَيه بِشِدَة، دَعَكهَا بِيَديه، فَتَح عَينِيه (مَا هَذَا !! إنَّهَا زَوجَتِي الَّتي تُوُفِيَت وَتَرَكَتنِي وَحِيدًا، هِيَ مَن كَانَت تُصدِرُ ذَاكَ الـ(مُوَاء)، أخَذتُ أُنَادِيهَا "زَوجَتِيييي"لَم تَكُن تَنظُر إلَيّ، بَل كَانَت تَتَصَرَف كَالقِطَط! ...آآه..)

****

زَعَمَ بعضُ أهَالِي القِريَة رُؤيَتَهُم صَاحِب المنزِل يَتَجَول ليلًا فِي الشَوارِع كَالقِطَط! كَمَا زَعَمَ آخَرُون سَمَاعهُم مواء قِطَط قَادِم مِن مَنزِلُه !

الجَدير بِالذِكر أنَ صَاحِب المَنزِل قَد تَوَفَى (أو اختَفَى) مِن مَنزِلِهِ مُنذُ شَهر، وأنَ جِيرانَهُ وَأصحَابَهُ لَمَا لاحَظُوا اختِفَائَهُ اتَفَقُوا عَلَى التَجَمُع عِندَ بيتِه لِيَعرِفُوا مَا حَدَثَ لَه، وَعِندَمَا دَلَفُوا إلَى بَيتِه، أخَذوا يَطرُقُونَ البَاب بِدُون فَائِدَة، فَدَفَعُوا البَابَ بِقُوَة وَدَخَلُوا .

أضَاءُوا هَوَاتِفَهُم وَتَفَحَصُوا المَنزِل جَيدًا، فَلم يَجدوا لَهُ أثَرًا، وَعِندَمَا دَخَلُوا الخَلَاء، وَجَدُوا مَلَابِسَهُ مُبَعثَرَة بِطَرِيقَة هَمَجِيَة، وَكَأنَهَا قَد خُلِعَت مِن صَاحِبِهَا عُنوَة!

خَرَجُوا جَمِيعُهُم مِن المَنزِل، عَدَا صَدِيقُهُ "عَلِيّ" الَذِي أخَذَ يَتَفَحَص مَلابِس صَدِيقُهُ جَيِدًا، وَجَدَ هَاتِفَاً بِجَيبِ البِنطَال، وَلَكِن كَانَت بَطَارِيَتَهُ خَاوِيَة، وَجَدَ نقشًا مَحفُورًا عَلَى زُجَاجِ الشَاشَة حَاوَلَ قِرَاءَتَهُ " ا..ح..ذ..ر." احذر" ! .ا..ل..ب..هـ..ي..م ..."البَهيم"!!

"احذر البَهِيم "

لَم يَشعُر "عَلِيّ" بِنَفسِه إلا وَهُوَ مُستَلقٍ عَلى سَرِيرِه فِي المَساء، و اللَيلُ قَد قَارَبَ مِن مُنتَصَفِه ... قُطِعَت الكَهرُبَاء ... صَوتُ (مُوَاء) قِطَة .

****

تمت

مَملَكَة الأُسود

أنَا مُنذُ خَمسِينَ عامًا
أُحاوِلُ رَسمَ بِلادٍ
تُسَمَى مَجَازًا بِلادَ العَرَب
رَسَمتُ بِلَونِ الشَرَايين حِينًا
وَحِينًا رَسَمتُ بِلَونِ الغَضَب
وَحِينَ انتَهَى الرَسمُ ، سَاءَلتُ نَفسِي:
إذا أعلَنُوا ذاتَ يَومٍ وَفَاة العَرَب..
فَفِي أي مَقبَرةٍ يُدفَنُون؟
وَمَن سَوفَ يَبكِي عَلَيهم؟
وَلَيسَ لَدَيهم بَنَات..
وَلَيسَ لَدَيهم بَنُون..
وَلَيسَ هُنالِكَ حُزن
وَلَيسَ هُنَالِكَ مَن يَحزَنُون!!
نِزَار قباني

بين المُروج الخضراء، والبساتين المُزهرة، علا صوتُ الزئير الصاخِب، زئير ينُم عن عَظَمة، يَشي عن عِزَة وجَبروت، مملكة عظيمة، بحاكِمها المِغوار و جيشُها الفتاك، وشعبها الأصيل.

نحنُ عندما نتحدث عن القوة، فأننا وبلا شَك نتحدث عن مملكة الأسود! شَعب حافظ على قِيَمه ومبادئه، أدركَ أن قوته لا تكمُن إلا في وحدته، وأن عِزَته لا تَكمُن إلا في طاعته لمَلِكه، كَان هذا احتفالًا بالذِكرى المائة لنَصر المملكة على مملكة النمور .

وفَور ارتقاء الملك العظيم إحدى الجِبال العاتية، أطبق الصمت على المكان، ونظرت جميع الحيوانات إلى مَلكهم الأسد في وقار وإجلال، وبدأ المَلِك العظيم يُلقي كلمته:

- شعبي العزيز، أوَدُ أن أُهنئكُم اليوم بذكرى نصرنا المجيد على مملكة النمور الشريرة، نَحن وبلا شَك نُكِنُ لأجدادنا العُظماء كُل التقدير، الذين بذلوا قصارى جهدهم في إحباط قوات العدو والقضاء عليه، إننا اليَومَ نحتفل بالنَّصر! هيا .. احتفلوا ....!

وفَور إلقاء المَلك كلمته الأخيرة، عَلا الصخب والضجيج أركان المكان، أسود تزأر وذئاب تعوي، وأحصنة تصهل، وحمير تنهق، وكلاب تنبح، سَرى حُبُ الأسود في عروق كُل حيوان في تلك المملكة، فكانت الحيوانات ترى أن كُل مُقومات العدل والمساواة تتجسد في الأُسود فقط، على عكس الملوك الآخرين، ففي مملكة الضباع على سبيل المِثال، يُعاني شعبها مِن الذُل والفقر والاضطهاد، وفي المُقابل، تدَعي الضِباع أن العدل والحرية هُما

من أهم المباديء في مملكة الضِباع ! أيضًا نجد أن مملكة النمور أقامت عدة مشاريع في الآونة الأخيرة، وكان آخرها مشروع سُمِيَ بحقوق الحيوان! وفي المُقابل، يُقاسي شعبها الذُلَ والعجز مِن النمور الطاغية ! وإن أجرَينا مُقارنات بين مملكة الأسود والممالك الأُخرى، لوجدنا أن مملكة الأُسود هي الوحيدة فقط التي تنعم بجميع مباديء العدل والمساواة والحُرية والكرامة، وتُطَبِق تِلكَ المَباديء على أرضِها .

****

على أرضٍ جَدباء قاحِلة، يُغَطيها الرماد الناتج عن احتراق أجساد الكائنات الحية! جلس مَلك النمور الكَهل على إحدى الصُخور العالية، وكان حوله العديد من النمور المُسنة من وُزراءه ومُستشاريه، كانت معالم الحِقد الدفين قد ارتسمت على وجوههم بوضوح.

- الحَربُ أيُها المَلِك ..!

قالها أحد الوزراء في حماس، وكان أصغرُهم سِنًا .

- نعم أُيها الملك، يجب علينا استرداد مُلكنا الذي ضاع، يجب ألا نترُك أراضي أبائنا وأجدادنا في أيدي الأسود الملاعين ..عليهم اللعنة !
- ولكن أيها المَلك، مَن سَيُحارب معنا؟ النمور وحدها لا تقوى على هزيمة الأسود، أنستعين بالرَعية من الحيوانات؟ الذين سلبناهم كُل مايملكون؟ وضَيَقنا عليهم ..
- اخرس أيُها الوَقح !

صاح به الملك وقد اشتعل غضبًا، أخذ المَلك يصيح في انفعال:

– أيُها الحَرَس .. خُذوا هذا الخسيس إلى السجن!

أصاب الخوف والرهبة كُل الحاضرين، فلم يجرؤ أحد أن يتفوه بكلمة حتى يعود المَلك إلى هدوءه .

وتتوالى الفُتوحات في مملكة الأسود، حتى أصبحت أكبر وأقوى الممالك، وفي إحدى ليالي الشتاء القارِص، اجتمعت الأسود عند بيت المَلِك العجوز، لقد كان يُلقي آخر أنفاسه، كانت الأسود من أصحابه وأهل بيته مُلتفين حوله، و علامات الحُزن والأسى بادية على وجوههم، بدأ المَلك يتحدث بصوتٍ رَخِيم تشوبه الحشرجة:

– أيُها الأحباب .. لقد أتَتني المَنِية، كُونوا على يقين مِن أنها ستأتي لكُل واحد منكم يومًا ما، أود أن أُقَدِم لكم بعض النصائِح والوصايا قبل أن تصعد روحي للسماء، إياكُم والفُرقة ! مهما بلغت قُوَتُكم فستُضعِفها الفُرقة، سيروا في قطيعٍ واحد، لا تعطوا للعدو فُرصة بأن ينقض عليكم مُنفَردين، أولا يأكُل الذِئب مِن الغَنَم القاصِية؟! قوتكم في اتحادكم، حافظوا على مبادئكُم، إياكُم ونسيان مبادئ مملكتكُم، ففيها قُوتكُم وضعفكم، وحياتكم ومماتكم، إياكُم والضَعف !كُونوا أقوياء دائِمًا، اعلمُوا أن العالَم لا يُقَدِر الضَعيف الواهِن، فإن وهنتُم لحظة فسيركُلكم العالَم بحِذائِه المُتَسِخ مِن وَحل الشِتَاء الفَائِت !

أصبَحت مملكة الأسود مُترامية الأطراف، مما جعل شعبها مِن أغنى الشعوب وأحظاها بالرزق والخيرات، بعد وفاة المَلِك العظيم، خلفه في المُلك أحد القادة الكِبار، وكان مَلِكًا قويًا عادِلًا مُطَبِقًا لِمباديء المملكة، وبعد مرور مائة عام، أي بعد وفاة قُرابة عشرة أجيال، مَرَت سَحابَة الظُلم فوق مملكة الأسود ! أصبَح الأسود هُم وحدهم المُنَعمين بكُل خيرات المملكة، مُذ حَكَم المملكة ذاكَ المَلِكُ الجائِر، أصبحت الحيوانات كالعبيد في يَدِ الأسود، نسوا مباديء المملكة نسوا نصائِح المَلِك العظيم، نسوا حروبهم مع الممالك الأُخرى، فأصبح يُرسَل للأسود كُل نهار غدائهم مِن مملكة الضِباع ! وأصبحوا يستعينوا بمملكة النمور في تسيير أمور الحُكم !

وفي مساء إحدى أيام الخريف، اجتمع ملك النمور وملك الضباع وملك الفهود اجتماعًا سِريًا، فبدأ النمر العجوز الاجتماع قائِلًا:

– يجب أن نفعل شيئًا! لن نصمُد على هذا الهُراء كثيرًا، الأسود يحكمون الغابة، ويجب أن نُخَلِصها مِن أيديهم، ولكن كيف؟

فَردَ الضبع :

– الحَرُب أيُها النَمِر !، الحرب... إن اتحدنا معًا فسنهزم الأسود شَرَ هَزيمَة!

فَرد النَمِر :

– ولكِن أيُها الضبع، حتى لو اتحدنا ثلاثتنا فلن نستطيع هزيمة الأسود فجيشهم يفوق عددنا مُجتمعين .. اللعنة!

فنظرَ الضبع إلى الفهد الهاديء بارتياب، فهو لم يتفوه بكلمة مُنذ بدأ الاجتماع صاح الضبع بالفهد :

– لِم لا تُشارِكُنا الحديث !؟

فرد الفهد في هُدوء :

– كُنتُ أفكر في حل لتلك المُعضلة التي اجتمعنا اليوم من أجلها ..

– إذًا، شارِكنا بأفكارك ..

– حسنًا، أرى أيُها الرِفاق أن الحَرب ليست الحَل الآن، الحَرب لن تكون إلا استنزافًا لنا، ولن تعود علينا إلا بالهزيمة..

فقاطعه النَمر:

– هاتِ ما عندِك !

– الرأيُ عندي أيُها الرِفاق، أن نجعلهم يفترقون..!

صاحَ النَمر والضبع في نفس الوقت:

– وما السبيل إلى ذلك ؟

****

أصبح شعب مملكة الأسود، يُكِنُونَ في قلوبهم عداوة وحقد وكراهية لحكامهم الأسود الجائرين، فانقلبت الأمور على أعقابها! حيثُ أصبحت شُعوب الممالك المُجاورة أنعم وأكثر رفاهية من شعب مملكة الأُسود، وكان المَلِكُ الحالي أكثر كُرهًا للحيوانات مِن المُلوك السابقين، فَلَم يُطَبِق حَرفًا واحِدًا مِن مَباديء المَملكة ! وكان بينَه وبين مملكة النمور لقاءات سِرية، لا يَعلَم أحد تفاصيلها، حتى الحيوانات أنفسهم، نسوا مبادئهُم وقوانين مملكتهُم ..

نصائِح المَلِك العَظيم التِي كَانَت محفورة على جُدران المملكة، لَم يَعُد أحد يقرأها مُنذ مات الملكُ العَظيم، أصبحت كالأساطير! لاتُغني ولا تُسمِنُ مِن جُوع، وفي إحدى الاجتماعات التِي أجرِيَت بين المَلك ووزرائُه.

قال المَلِك :

- أيُها الأُسود، إن مملكتنا أصبحت عظيمة مُترامية الأطراف، وأصبحتُ أخشى مِن عَدَم القُدرة على الحُكم وحدي، ولقد قرَرتُ في يومي هذا أن أُقَسِم المَملكة إلى ثلاثة وعشرين مُقاطَعة! كُل مُقاطَعة يحكُمُها أسد أختارُه أنا .

عَلَت الابتسامات وُجوه الأُسود حوله، فَكُل مِنهم طَمِع في مُلك إحدى المُقاطعات، قُوبِل هذا القَرار بالقَبول مِن الأسود فقط، أما بَقِيَة الحيوانات فَقَد احتَجُوا على هذا القَرَار، وأخذت قِلَة مِن الحيوانات الورِعة تُذَكِر الشَعب بِنصائِح المَلِكُ العظيم:

"إياكُم والفُرقة ! مهما بلغت قُوَتُكم فستُضعِفها الفُرقة، سيروا في قطيعٍ واحد، لا تعطوا للعدو فُرصة بأن ينقض عليكم مُنفَردين، أولا يأكُل الذئب مِن الغَنَم القاصِية؟! قوتكم في اتحادكم، حافظوا على مبادئكُم، إياكُم ونسيان مبادئ مملكتكُم، ففيها قُوتكُم وضعفكم ..وحياتكم ومماتكم"

فاشتاطَت الحيوانات وعلا فيهم لَهِيب الثَورَة، فَما كانَ مِن الأُسود إلا أن قدموا الحيوانات الورعة، والتي أشعلت نيران الثورة هَدِية لِلمَلك على قراراتُه الإصلاحِية الجديدة! فأبَى المَلِك إلا أن تُشارِك معه الأُسود غدائَهُ الدَسِم! وأُلقِيَ القَبضُ على الذين خرجوا احتجاجًا على القرار، فأُرسِلوا عشاءًا لِملك النمور ..! مَرت الأعوام والسُنون على تِلكَ الواقِعة، فَجاءت أجيال جديدة، أجيالًا لَم تَعرِف ماهي " مملكة الأُسود " كُل ما يَعرِفونَه هُوَ "مُقاطعات الأسود " وكانت ثلاثة وعشرين مُقاطَعة كُل مُقاطَعة يَحكُمُها مَلك مُختلف، وكان كُل ملك لا يُكِن للملوك الآخرين إلا العداوة والبُغض والكراهية.

****

وفي إحدى اجتماعات ملوك النمور والضباع والفهود، لاحظ ملك النمور ثعلبًا يدلف إلى الاجتماع، فصاح به بصوته الرخيم:

– من أذِن لَك بالدخول إلى هُنا !؟

فابتسم الثَعلب ابتسامة ساخِرَة، ونظر لملك الفُهود، فتحدث ملك الفهود:

– أنا أيُها الملك، سأُوَضِح لك كُل شيء ..

بدأ مَلِكُ النمور يفتتح الاجتماع:

- اجتمعتُ بِكُم اليوم لِكَي نتَفِق على الخُطوَة التالية، كما تعلمون، فقد انقسمت مملكة الأسود على النحو الذي خطط لَهُ أباؤنا وأجدادنا، وأصبحت كُل مُقاطعة مُنفَرِدة بنفسها، مما يسنح لنا أن نغزوا كُل مُقاطعة على حِدى، وبلا شَك سننتصر، فعددنا يفوق أعداد كُل مُقاطَعة، فماذا تَرَونَ في ذلِك ؟

أجاب ملك الضباع بِلهفة:

- نَعَم أيُها النَمر، سنُحاربهم لنسترد مُلك أباءنا وأجدادنا، الأرضُ أرضنا والنصر لنا أيُها المَلِك .

فنظر النمر للفهد قائِلًا:

- وماذا ترى أيُها الفهد ؟

فأجاب الفهد في حزم :

- أرى أيُها الرِفاق أن نُحارِبهم، ولكن ليس بالقوة !

فتبرم النمر والضبع وصاحا:

- كيف!؟
- لهذا السبب قد جِئتُ بهذا الثعلب اليوم، كما تعلمون أيُها الرفاق فالثعالب ليس لها موطِن واحد، يجمعهم ويلم شملهم، بل يعيشون مُتفرقين في الممالك المُختلفة .

صاح الضبع:

- ما الذي ترمي إليه !؟
- أرى أيُها الرفاق أن نَدُس الثعالِب بينهم، بِحُجة عدم وجود مَأوى لِلثعالب المِسكينة!

فابتسم النَمر:

- نعم .. لكي نضمن عدم تجمُع الأُسود مرة أُخرى، إنها لحِيلة عظيمة أيُها الفهد ..!

****

وَفَدت الثعالِب مِن جميع أنحاء الممالِك، إلى المُقاطَعة التِي حدَدها لَهُم مَلِكُ الفهود، وَبَعد حرُوبٍ استمَرَت عِدة أيام، استولت الثعالِب على تِلكَ المُقاطَعة، فلاقى الأمرُ امتِعاضًا مِن مُلوك عِدة مُقاطَعات، وأحالوا انزِعاجهم إلى مَلِك النمور ! فَبَرَر الموقف بِحرصه على الثعالِب المسكينة التي لم تجد لها مأوى يجمع شملها! فانصاعت الأُسود لهذا المُبرر، ووجدوا أن ما باليد حيلة!

ومَرَت الأيامُ أعوامًا مِن الضعف والعجز والآلام والأحزان التي تَمُر بِها مُقاطعات الأُسود، وتتوالى المُؤَامرات التي تدُور بين ملوك النمور والضِباع والفهود، وفي احدى هذه المُؤَامرات ..

- نحنُ لَم نُحارب حتى الآن أيُها النَمر !

صاحَ بها مَلِكُ الضِباع وقد نفَذ صبرُه فتكلم مَلكُ النمور في هُدوء:

– اصبِر أيُها الضَبع النَزِق! لِنَر ماذا أعدَ لَنا مَلِكُ الفهود هذه المَرة.

فتنهدَ الفَهدُ تنهيدة طويلة قبل أن يتحدث:

– كَما أخبرتكم سلفًا، سنُحارِبهم، ولكن ليس بالقوة ..! سنغزو أفكارهم، سنُسيطر على عقولهم، سَنُشعل نارَ الضَغينة في قلوب شعوبهم، سنُحاربهم، ولكِن بأنفسهم !

– كيف ذلك ؟!

– اصغوا إلي جيدًا، سنُحارِب الأَسود، ولكن ليس بالنمور ولا بالفهود ولا بالضِباع، سنحارب الأسود بالأُسود !

تَمَت

طَوقُ النَجاة

في إحدى الشَوَارِع المُكتَظَة، أسِيرُ وَحِيدًا، مُمسِكًا بأنَامِلِي عُنُقَ مَشرُوبِي الكُحولِي المُفَضَل، أرتَشِفُ مِنهُ رَشفَة بَينَ الفَينَة والأُخرى، أبحَثُ عَن شَيء يَمحُو تَعَاسَتِي، مَا هَذا الشَئ ؟ لَستُ أدرِي .

عَينَايَ جَاحِظَتَان، أشعَثُ الشَعر، أسوَدُ الوَجهِ وَالقَلبِ أيضًا، أسِيرُ فِي اتِجَاهِ اليَمِينِ تَارَة، وَفي اتِجَاهِ اليَسَارِ تَارَةً أُخرَى، كَمَن أصَابَهُ الجُنون، فَيَرَانَي الصِغَار وَحشًا فَيَفِرُون، وَيَرَانِي الكِبَارُ مَجنُونًا فَيَبتَعِدُون .

حَياتِي تَبَعثَرَت، لَم أعُد أقدِرُ عَلَى جَمعِهَا بَعدَ شتَاتها، لَستُ إلا رَجُل أربعِينِي تَعِيس، أعِيشُ حَيَاة بَائِسَة، لا أذكُرُ أنَنِي استَمتَعتُ بِنُزهَة قَط، وَلا ضَحِكتُ مِن قَلبِي مَثلَ أصدِقَائِي أبَدًا، نَعَم أضحَكُ أمَامَهُم، ولَم تَكُن الابتِسَامَة تُفَارِق شَفَتَاي، وَلَكِن ابتِسَامَة زَائِفَة حَقِيرَة، وَيَظَلُ قَلبِي بَائِسًا، لَم أعُد أرَى البَشَرَ بَشَرًا! بَل أستَبصِرُهُم حَيَوَانَات نَاطِقَة.. !

تُرَى هَل خُلِقتُ بِهَذَا القَلبُ الأعمى؟! أم أصَابَهُ العَمَى جَرَاءَ تَدَفُقِ شُحنَات سَوَدَاء بِداخِلِه، وَلَكِن هَل مِنَ المُمكِن أن يُؤَثِر عَمَى القَلبُ عَلى العَين؟! بَالفِعل، فَقَد وُلِدتُ صَحِيحَ البَصَر، وَلَكِنِ الآن، لَم أعُد أَرَى الأُمورَ عَلَى حَقَائِقِهَا، أرَى سَوادُهَا فَقَط، تُرَاوِدُنِي تَسَاؤُلات لاَ حَصرَ لَهَا، هَل خُلِقتُ الآن ؟ أَشعُرُ وَكَأنَنِي أرَى هَذِهِ الدُنيَا لِلوَهلَةِ الأُولَى، وَأَكثَرُ مَا يُحَيِرُنِي الآن " مَن أنَا ؟ "

أبصَرتُ حَيَوَانًا يَسِيرُ عَاقِدًا حَاجِبَيهِ فِي ضجر، كَعشَرات الحَيَوَانَات الأخرَى، فأشَرتُ لَه صَائِحًا:

– أَيُهَا السَيِد ..... مَن أَنَا ؟

– .....

يَا لَحَمَاقَتِي! شَعَرتُ لِوَهلَة أَنَنِي جُنِنت، فَحَاوَلتُ استِدرَاكَ المَوقِف:

– مَاااااا.....مَا اسمُ هَذَا المَكَان ؟

أَخَذَ يَرمُقُنِي بِنَظَرَات فَاحِصَة، وَقَالَ فِي امتِعَاض :

– أَمَجنُون أنت ؟!

كِدتُ أقذِفُهُ بِالزُجَاجَة الَتِي بِيَدِي، وَلَكِنَهُ تَرَكَنِي وهَرَب، بَعدَمَا أخَذَ يُهَمهِم بِكَلِمَات لَم أسمَعهَا، يَبدُو أنَنِي ضَائِع لاَ مَحَالَة، جَمَعتُ شَتَاتَ نَفسِي وَذَهَبت، ذهبتُ لِحَيثُ لاَ أدرِي، أمضِي قُدُمَاَ دونَ تَوَقُف، حَتَى أرهَقَنِي التَعَب عند أحد المَبَانِي، كَانَ أشبَه بِبِنَاء ضَخم، يَعلُوهُ العَدِيد مِنَ الأَبرَاج النَحِيفَة العَاتِيَة، لَم أكَد أنعَم بِبَعضِ الرَاحَة حَتَى أفزَعَنِي الصَوتُ الَذِي خَرَجَ مِنهُ، وَلَكِن ... وَلَكِن أَشعَرَنِي بِلَذَةٍ رَهِيبَة، شُعُور لاَ يُضَاهَى، لاَ أدرِي أينَ يَكمُن سِرُ عُذُوبَة هَذا الصَوت، شَعَرتُ بِشَيء بِدَاخِلِي يَدعُونِي لِلذَهَاب نَحوَ ذَاكَ الصَوت، شَئُ أجهَلُه ... يَشُدُنِي بِقُوَة، لَم أكُن أشعُر بِنَفسِي، كُلُ مَا أدرَكتُهُ وَقتَهَا أنَ قَدَمَايَ تَجُرَانِي نَحوَ بَابِ المَبنَى الَذِي كَانَ مَفتُوحًا عَلَى مِصرَاعَيه، ألقَيتُ زُجَاجتي وَدَخَلت، دَخَلتُ وَلا أدرِي مَا بِدَاخِلِه، وَبِمُجَرَد عُبُورِي ذَاكَ البَاب أحسَستُ رَجفَة غَرِيبَة تَسرِي بِدَاخِلِي، المَكَان أشبَه

بِحُجرَة دَائِرِيَة وَاسِعَة المَدَى، كَانَ المَكَانُ خَالِيًا إلا مِن رَجُل مُثِن كَثُ اللِحيَة، كَانَ جَالِسًا بِجَانب مُجَسَم خَشَبي عِملاق، مُتَدَرِج بِدَرجَات خَشَبِيَة، ذَهَبتُ نَحوَه وَجَلَست أمَامَهُ مُبَاشَرَةَ، ثُمَ .....أَجهَشتُ بِالبُكَاء! .

* * * * * * * * *

مَعَ مُرُور نِصفِ سَاعَة مِن ارتِقَاء الشَيخ " نَاجِي " المِنبَر، أَنهَى خُطبَتَهُ قَائِلًا:

– لَقَد كُنتُ عَلَى حَافَةٍ مِنَ الغَرَق، لَولا أَنَ اللهُ اكتَنَفَنِي بِطَوقِ النَجَاة

.

تمت

الكنز

ملحوظة : هذه القِصة هِيَ الأقرب إلى قلبي
فهي أوَلُ ما خَطَت يَداي!

في إحدى ليالي ديسمبر الباردة، عند أحد البيوت القديمة، اقترب شاب في بدايات العقد الثالث من عمره، طرق باب البيت بضع طرقات خفيفة، فتح له شاب يشبهه قليلًا، ولكنه كان يصغره بسنوات قليلة، وكان وجهه أشد بياضًا ونقاءً منه، صاح به وقد ظهرت على وجهه علامات الغضب:

- أولم يأمرك الطبيب بعدم تناول هذه المشروبات الكحولية ثانية؟ كم من الوقت سأظل أنصحك هكذا؟ أين أبي اليوم ليراك على هذه الحالة؟ متى تفيق من هذا الـ..

فقاطعه حسام قائلًا:

- دعك من هذا، ماذا أعددت لنا اليوم للعشاء ؟

رد ضياء في هدوء بعدما صمت برهه:

- لقد دعانا الحاج صبحي صديق أبي القديم للعشاء عنده هذه الليلة.

فصمت قليلًا ثم تابع حديثه:

- لقد أخبرني بأنه يريد أن يحدثنا في أمرٍ هام .

قال حسام متجهًا إلى غرفته، وقد بدى على وجهه عدم الاهتمام:

- اذهب أنت، أخبره أنني مشغول.

فصاح به ضياء:

- لن أذهب دونك، انتظرتك طيلة هذا الوقت لكي تذهب معي، أخبرني الحاج أن الموضوع يخصني أنا وأنت .

توقف حسام والتفت لأخيه، فتابع ضياء قائلًا:

- إلى متى ستبقى على هذه العزلة، أولم توصنا أُمُنا بعدم الافتراق.

فأومأ حسام برأسه موافقًا دون أن يتفوه بكلمة واحدة، وانطلق الأخوان إلى بيت الحاج صبحي تاركين ورائهما بيتهما الصغير، الموحش، الذى بدت عليه علامات القدم، كان بيت الحاج لا يبعد كثيرًا عن بيتهم فقد ذهبوا إليه سيرًا على الأقدام، وعندما وصلوا إلي بيته، وطرقوا الباب، فتح لهم رجل مُسِن، كان في العقد السادس من عمره وقد ظهرت عليه علامات الضعف والكبر، قال لهم بعدما ابتسم ابتسامة خفيفة:

- أهلا أولاد الحبيب، تفضلوا .

وأغلق الباب، ودخلوا إلى حجرة صغيرة، وأشار لهم بالجلوس، نظر الحاج صبحي إلى حسام قليلًا وقال له في أسىً:

- لِمَ تفعل هذا بنفسك يا حسام؟ ألم تعلم أنك بهذا تغضب ربك، وتهلك صحتك، لقد غير الدخان وجهك الذي كان نقيًا .

فنظر حسام إلى ضياء وقال في سخرية:

- أهذا هو الأمر الهام الذي جاء بنا من أجله؟

فتجاهل ضياء سؤاله، ونظر للحاج في صمت، قال الحاج:

- لقد جئت بكم الليلة، لكي أعطيكم هذه الورقة، التي قد تركها معي والدكم، وأوصاني بإعطائها لكم عندما يحين الوقت المناسب.

مع اقتراب الفجر، كان الأخوان قد وصلا إلى منزلهما، وكل منهما شارد الذهن بما سمعه من حديث الحاج صبحي بخصوص الورقة القديمة التي تركها لهما والدهما، وأن وراءها كنز عظيم من كنوز الحياة، لم يُفق كل منهما من شروده إلا على صوت أذان الفجر القادم من المسجد القريب، فَهَمَ ضياء بالقيام، ونظر إلى حسام الذي كان غارقًا في التفكير، ممسكًا بالورقة التي كانت تشبه الرسائل الجلدية القديمة التي كانت تستخدم لكتابة رسائل الملوك القدماء، قال ضياء:

- هيا نذهب لصلاة الفجر، عسى الله أن ييسر لنا فهم محتوى هذه الورقة.

بعدما عادا من المسجد، جلسا معًا وقد بدءا في حل هذا اللغز، الذي سيوصلهم إلى الكنز الذي تركه لهم والدهما، على حسب قول الحاج صبحي، كانت الورقة بها ثلاثة رموز غريبة، الأولى على شكل قبة المسجد، والثانية على شكل مظلة، والثالثة على شكل مطرقة، نام حسام بينما ظل ضياء يفكر في الرموز المكتوبة على الورقة، ومضى الوقت دون أن يصل

إلى شيء، ومع اقتراب وقت الظهيرة، استيقظ حسام فَزِعًا على صوت ضياء يصيح:

- وجدتها وجدتها .

قال حسام:

- ماذا وجدت ؟!

فرد ضياء مبتسمًا:

- وجدت استنتاجًا يقودنا لفك اللغز، لم يعد أحد بيننا وبين الكنز،

فرد حسام:

- ما هذا الاستنتاج ؟

فضحك ضياء قائلًا:

- أنظر إلى الورقة يا أخي، ستجد أن كل الرموز تعبر عن أشياء قديمة كانت متعلقة بأبي، فمثلًا قبة المسجد، هي صورة مسجد قبة الصخرة الكبيرة المعلقة في غرفة أبي، أما المظلة، فإنها مظلة أبي التي كان يحتفظ بها منذ زمن بعيد، وهي موجودة أيضاً في غرفته، وأما المطرقة فقد تذكرت أن أبي كان يمتلك واحدة .

فقال حسام:

- أيمكن أن تكون هذه مفاتيح تقودنا للكنز ؟

قال ضياء:

- بالتأكيد، هيا نذهب إلى صورة القبة .

دخل الأخوان إلى غرفة أبيهما، التي كانت شبه مهجورة، فلم يدخلها أحد منذ سنين، واتجها نحو صورة القبة الكبيرة، قال حسام :

- أيمكن أن يكون الكنز وراء هذه الصورة !

فنظر إليه ضياء وقال:

- أعتقد ذلك .

فحملوا هذه الصورة من الحائط، ولكن بصعوبة شديدة فقد كانت وكأنها ملتصقة على الجدار، فوجدا وراءها مستطيل خشبي على شكل باب يتوسطه ثقب دائري صغير، فقال حسام متسائلًا:

- أي مفتاح يفتح هذا الباب !

فضحك ضياء قائلًا:

- أتمنى أن يكون ظني صائبًا .

وذهب مسرعًا إلى خزانة الثياب الخاصة بوالده، وأخرج مظلة قديمة، واتجه بها نحو الثقب الدائري، ثم أدخلها بداخله، ولكن لم يحدث شيء، فصاح ضياء في ضيق:

- خاب ظني هذه المرة ، لم أتوقع هذا.

وبينما هو يتحدث، إذ بحسام يفتح المظلة وهي داخل الثقب الدائري، وفجأة اندفع المستطيل الخشبي بقوة، اندهش الأخوان مما حدث وأسرعا نحو المدخل الصغير الذي كان وراء المستطيل الخشبي، ففوجئا بوجود حائط خشبي آخر يبعد عن الأول بنحو ثلاثة أمتار، لكن هذه المرة لم يكن به ثقب ليستطيعوا فتحه كما حدث في المرة السابقة ، قال ضياء مشيرًا إلى رأسه:

- فكري أرجوك، أنا في أشد الحاجة إليكِ الآن .

قال حسام:

- لِمَ كل هذا العذاب يا أبي، أما كان يمكن أن تخفيه بطريقة أسهل من تلك .

قال ضياء:

- دعنا نفكر بمنطقية، من الممكن أن يكون الكنز وراء هذا الجدار الخشبي مباشرة، إذًا فيجب أن نتخلص منه، ولكن كيف؟

صمت برهه ثم صاح قائلًا:

- المطرقة! نعم المطرقة هي الحل .

اندفع الاثنان إلى الغرفة وأخذا يبحثان عن المطرقة حتى أرهقهما التعب، وبعد عناء طويل وجداها في إحدى الصناديق القديمة، فذهبا بها إلى الجدار الخشبي، وأخذا يطرقان عليه بالمطرقة بكل ما أوتوا من قوة، حتى اندفع

الجدار بقوة للخلف، وبدأ يتهشم شيئًا فشيئًا، ودخلوا في فرح وكل منهما قد أطلق العنان لخياله، لكن كانت الصدمة! كانت عبارة عن حجرة مستديرة يملأ جدرانها آلاف من الكتب فقط... ولا شئ آخر!

تَمَت

الوَحِيد

أسِيرُ وَحِيدًا فِي طُرُقَاتِ الضَيَاع، أشعُرُ وَكَأنَ شَيئًا مَا يَنقُصُنِي، أهُوَ فِقدَانِي لِرَفِيق؟ كَلا، فَقَد بِتُ أبغَضُ الرُفَقَاء، لا يَروقُ لِي العَيشُ مَعَهُم، وَهُم أَيضًا بِالمِثل، لَم يَتَمَنَى أحَدُهُم يَومًا أن يُرَافِقُنِي، فَهُم يَرَونَنِي تَعِيسًا! وَأنَا أرَاهُم بُلَهَاء! هُم يَرونَنِي مُغَفَل! وَأنَا لا أرَاهُم إلا مَجمُوعَة مِنَ الحَمقَى! لا أدرِي، لِمَا لا يَكِونُ لِي رَفِيق! كَانَ لِي فِي طُفُولَتِي العَدِيد مِن الأصدِقَاء المُقَرَبين، وَلَكِن بَعدَهَا .. لا أدرِي!

هَل تُصَدِقُونَنِي إن أخبَرتُكُم أنَ بَعضَ السُفَهَاء يَعتَبِرُونَنِي مُكتَئِب! هَل يُعقَلُ هَذَا؟!، بَل وَيُعَايِرُونَنِي دَائِمًا بِذَلِك، " هَل أَنتَ حَزِين ..؟ " "لِمَ لا تَتَحَدَث ..؟ "

نَعَم تَذَكَرت، هُم يَرَونَنِي لا أتَحَدَث أبَدًا! كَمَن أَصَابَهُ البُكم! وَلَكِن سُؤَال خَطَرَ بِبَالِي، هَل أنَا لا أتَحَدَث فِعلًا؟ أم هُم مَن يَعتَقِدُونَ ذَلِك! نَفرِض أنَهُم عَلَى حَق، لِمَاذَا لا أتَحَدَث ؟!

هَا قَد حَانَت الرِحلَة المَدرَسِيَة، وَقَادَتنِي حَمَاقَتِي لِلإشتِرَاك فِيهَا، وَأعلَمُ أنَ الرِحلَة الجَيدَة هِيَ الَتِي يَكونُ لَكَ فِيهَا رَفِيقُ جَيِد، وَأنَا لا أمتَلِك حَتَى الصدِيق السَيِء! أَغَارُ مِنهُم أحيَانًا، هُم يَمرَحُونَ مَعًا، يَضحَكُونَ مَعًا، يَفعَلُونَ كُلَ شَيء مَعًا (مَعَاً) هَذِه، تِلكَ الكَلِمَة التِي لَم أنَعَم بِهَا مَرَة، كَلِمَة تَشِعُ حُبًا وَحَنَانًا، ضَوئُهَا اللامِع، يَسطَعُ بِقُوَة فِي أَنحَاءِ القَلبِ، فَتَمنَحُهُ الرِقَة وَالحُب.

هَا أنَا أسِيرُ وَحدِي الآن فِي مَدِينَةُ المَلاهِي، لَم أُقَابِل أَحَدًا مِثلِي، بِدُون رَفِيق الألعاب التِي بِهَا مَقعَدَينِ لِرَفِيقَين، أركَبُهَا وَحدِي! يَعجَبُ كُلُ مَن يَرَانِي أعتَلِي الألعَابَ وَحِيدًا، وَمَعَ ذَلِك أذكُرُ أنَنِي دَائِمَاً كُنتُ لا أُحِبُ الرُفَقَاء !

هَل أنَا فِعلًا مَرِيض بِالوِحدَة؟ الأَمرُ الذِي يَزِيدُنِي تَعقِيدًا، لِمَ دَائِمَا عَينِي تَرَى زُمَلائِي حثالة! .. قْذِرُون! أُشفِقُ عَلَى نَفسِي كَثِيرًا، أسِيرُ وَحدِي، وَأرَاهُم مَعًا، مَجمُوعَةً وَاحِدَة، أفكَارُهُم وَاحِدَة، وَالأهَمُ مِن ذَلِك .. قَلبُ وَاحِد!

حَاوَلتُ مِرَارًا وَتِكرارًا أَن أتَجازَبَ أطرَافَ الحَدِيثِ مَعَهُم، وَلَكن .. هُنَاكَ مَا أَجهَلُه، لا يتَقَبَلونَ كَلامِي، وَلا أتَقَبَلُ كَلامَهُم، تُبعِدُنِي عَنهُم مَسَافَات لَيسَت بِصَغِيرَة، كَأن يَتَحَدَث رَجُل أربعِيني مَع طِفل لَم يَتَجَاوَز العَاشِرَة! وَهَذَا مَا يُبَرِر مَوقِفِي مِن كَونِي مَريض بِالوِحدَة، فَلِي أصدِقَاء فِي المَرحَلَة الجَامِعِيَة! وَمِنهُم مَن أنهَاهَا، وَمِنُهم مَن لَه أولاد..! أيُمكِن أن يكُونَ عُمرِي الَذي لَم يَمضِ منه سُوَى سبعة عَشرَ عَامًا مُزَيَف !

أو أنَ عَقلِي يَكبُرُه فِي العُمر !

تمت

نِيفُون

الحياة قاسية، قاسية جداً ! قد يتغير مسرى حياتك بالكامل ، نتيجة خطأ ما خطأ طفيف، لم يكن لك ذنب فيه، خطأ لم يكن في الحسبان، بإمكانه قَلب حياتك رأسًا على عقب، أوه ! لقد نسيت أن أعرفكم بنفسي .

عماد مُنير، حاصل على " دبلوم صناعي " قاطن بإحدى القرى الصغيرة بمُحافظة (الشرقية) أعمل بإحدى المقاهي القديمة، كان عملي مريحًا إلى حدٍ ما، كُنتُ قد اعتذرتُ من مُدير المقهى أنني سأتغيب نحو "عامان" من العمل، نظرًا لتأديتي الخدمة العسكرية بالجيش المصري، استيقظت في الصباح، آخر أيامي بالمقهى، دلفتُ صَوبَ دورة المياة لكي أغتسل وأُبدل ملابسي استعدادًا للذهاب إلى العَمَل، تناولتُ طعامي سريعًا، أخذت أنظر إلى أسقُف منزلي التي لطالما كانت مَحل نظري في أيام وحدتي وشقائي، أخذت أُتمتم لها بكلمات وداع، بيتي الحبيب لن أراك طيلة فترتي في الجيش .. سأفتقدك يا عزيزي .

ذهبت إلى المقهى سيرًا على الأقدام، لم يكن بعيدًا كثيرًا عن مكان إقامتي، أخذتُ أودع زملائي في المقهى، ضحكنا كثيرًا، ولَهَونا كثيرًا، حدثوني عن الجيش، صعوباته وأحزانه، أيام الشقاء والتعب، أخبروني أن به لحظات لا تُعوض، رُغم التكدير والتدريبات المرهقة، إلا أن أيامهُ كانت تتخللها أوقات اللهو والمرح والمُزاح، جَن الليل، الساعة قاربت الثامنة، أُرهقت كثيرًا اليوم، يجب علي أن أستريح كثيرًا الليلة، سأرحلُ في الرابعة صباحًا، دلفت بتلكؤ نحو مُدير المقهى، يجب على أن أتقاضى راتبي الآن .. أخبرني المُدير أن أنتظر قليلًا .

كانت هناك أنقاض"مسجد " قديم أمام المقهى مُباشرة، كان قد هُدم مُذ فترة، ولكن تَبقت وَسط أنقاضة بَعض دورات المِياه صغيرة، كان يستخدمها أهل المنطقة، وعابرو السبيل، ونحو ذلك، أخبرتُ المُدير أنني سأذهب للخلاء وسآتي في الحال، كانت الأجواء مُظلمة، تحركت بصعوبة ناحية إحدى دورات المياه، كُنتُ أسير مادًا زراعاي للأمام، لكي أتحسس طريقي.

أخيرًا دخلت، وليتني ما دخلت ! أغلقت الباب بإحكام، كان قد تسرب بصيص نور بسيط جدًا من نافذة دورة المياه، نظرت حولي أتفقد المكان، رأيتُ عينا قطة سوداء صغيرة !لم يكن يفصلني عنها سوى نحو قدمان، كانت تنظر إليّ في سكون رهيب، أطلقت زفرة رعب، كان الخوف قد تسرب إلى أنحاء جسدي، شعرت بأن جسدي تثاقل جدًا، وقد تسارعت دقات قلبي، وتسارعت أنفاسي معها، شعرت بأن قلبي قد سقط أرضًا!

في هذه اللحظة، فتحت الباب بسرعة فائقة، لم تكن قدماي على مقدرة بأن تفر هاربة وقد حملت جسدي الثقيل بأكمله، لو استطاعت أن تفر من دوني لفعلت! أخذت أُلَوح بيَدَي في ضعف ناحية الباب، عسى القطة أن تخرج، ظلت واقفة في ثبات أرعَبني! أخذتُ أُناديها " أُخرجي اللآن .. هيا ...بس بس بس بس "

تحركت شفتاها ! في طلاقة رهيبة تحدثت " وماذا لو لَم أفعل ؟!! " ...

****

أشعُر بغُصة في حلقي، لقد بلغ العرق مني مبلغه، كما أنني أشعر بالظمأ، آآه يا رأسي، لقد بلغ منه الألم ذروته، ما هذا الظلام الدامس؟! هل أنا كفيف؟ أم قُطعت الكهرباء ؟ كهرباءُ ماذا ؟! أين أنا ؟! دعني أتذكر، نعم .. لقد كُنتُ في المقهى، وبعد ذلك كنت سأتقاضى راتبي، و ذهبتُ للخلاء ثُمَ "وماذا لو لم أفعل؟ (ترددت في أُذنيه فجأة) ..

آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه

- استيقظ ياعماد

أخذ يلهث بطريقة مُريبة، أين أنا!!!!؟ من أنت؟

- أنا صدقي .. استيقظ يا رجل، لقد مضى من الوقت نحو ساعة ونحن نحاول ايقاظك .
- ماذا حدث ؟ وكيف وجدتموني ؟ وكام الساعة الآن

قالها عماد بعدما هدأ قليلًا ..

- بعدما أخبرتني بذهابك للخلاء، وانتهيت من حساباتي وأخرجتُ لك راتبك، أخذت أُناديكَ ظنًا مِني بأنك في الجوار، وقتها تذكرت أنك قد ذهبت للخلاء فدلفتُ ناحية دورات المياه، خوفا من أن يكون قد أصابك مكروه ثُمَ ...."
- ثُمَ ماذا ؟! .. صاح به عماد في اصغاء
- ثُمَ .. وجدتك نائمًا على بلاط الخلاء ! وقد كُنت تُتَمتِم بِكَلمات غريبة، أعتقد كُنت تقول نيفون !

وضع عماد رأسه بين كَفَيه في كَلَل، وقد حاول تجميع الأحداث في رأسه:

- أكمل يا صِدقي قالها بصوت مُنخفض ...
- هذا كُلُ شيء، بعدها حَملتُك وجئتُ بِكَ إلى هُنا و كان وجهُك شاحبًا جِدًا وقسمات وجهك تُوحي بالهَلع ..

****

شَق عماد طريقه ناحية بيته، كان الليل قد قارب من منتصفه، أخذ يُقلب الكلام الذي سمعه من المُدير في رأسه:

"من هي " نيفون " التي كان يتلفظ باسمها ؟ على حد زعم المُدير "

تناول المفتاح من جيبه وفتح الباب، أضاء أنوار الشقة بأكملها " يا الله ... يجب علي أن أخلد للنوم في الحال " قالها بعدما أخذ يتثاءب.

****

- آآآآآآآآآآآآه أين أنا ؟! ما هذا الظلام ؟ تبًا، لا أستطيع النهوض! وكأن جسدي قد التصق بالسرير! أنفاس حارة، أشعر بها بالقرب مِني، أخذت الصورة تضح أمامي قليلًا نعم، أرى ظهر شخص ما يقف أمام المرآة، اتضحت الصورة أكثر، سحقًا! من أنت ؟! التفت فجأة، ليتني ما تحدثت ..! لقد كان رجل بـــرأس قطة!
- آآآآآآآآه

أخذت أصرخ في تشنج، انحجبت الصورة ثانية، ظهرت أمامي صورة أخرى، كان طفل في حديقة عامة...

- أمي.... أريد أن أدخل الخلاء، هيا يا أمي أسرعي، سوف أُبلل ملابسي.
- لاا إلا هذا .. تعالى بسرعة ..

وأخذت السيدة ابنها من يده .. و... انتقلت الصورة إلى مكان مُظلم قليلًا مكان أشعر أنني أعرفه جيدًا، بعدما دلفوا ناحية دورة المياه، صاح بها الصغير أن أخرجي الآن، أخذ الصغير يُغلق الباب بإحكام ليتأكد من عدم دخول أحد، وفور إغلاقه الباب، ظهرت قطة سوداء صغيرة واقفة خلفه مُباشرة، التفت الصغير في تَعجُب وابتسم للقطة، وجَث على رُكبتيه وأخذ يُداعِبها في مرح، ثُمَ قَال لها" يَجب أن ترحلي الآن"
في هذه اللحظة نظرت إليّ القطة مُباشرة، وقالت بصوت أجش " وماذا لو لم أفعل ؟!

****

الطقسُ سيئ اليوم، كِدت أن أُصاب بضربة شمسية هذا الصباح، لا أدري لماذا يجعلوننا نقف في الشمس الحارقة مكشوفي الرؤوس كُل يوم! أسنُحارب العدو برؤوسنا !

- عسكري حامد! "صاح بها أحد العساكر آمراً حامد أن تعال للقائد صبحي"

ياتُرى ماذا يُريد هذا الظابط الأخرق هذه المرة ..

- أعلم يا حامد أنك على بصيرة بالسحر والجان وما إلى ذلك، أُريد منك أن تسدي لي خدمة
- أنا رهن اشارتك سيدي ..

أخذ القائد صُبحي يلف لفافة تبغ رديئة ويبتسم فتظهر أسنانه السوداء، وأردف:

- أظُن أنك على علم بالخُرافات التي تناقلت بين العساكر بشأن العسكري " عماد "
- المجنون ؟ اعتلت ثغر حامد ابتسامه ماكرة
- أجل .. " بادلة القائد نفس الابتسامة "
- الحقيقة ياسيدي أنني لم أر هذا المدعو "عماد " ولكنني علمت من كلام العساكر، أنه يدعي رؤية العفاريت وما إلى ذلك، ولكن ماذا تريد مني أن أفعل ؟
- أريدك أن تكون قريبًا منه إلى حد الصداقة، وأعلمني إن كان يكذب أو إنه صادق فيما يقوله ..
- ولكن ياسيدي .. لماذا تُريد معرفة كل هذا ؟
- نفذ الأوامر فقط! أخرج الآن !

****

أخذ حامد يبحث عن عماد بين صفوف العساكر، وجده جالس بعيدًا بمفرده وفي يده قلم وبعض الأوراق، كان يكتب في كل ورقة بضع كلمات ويتركها ويكتب في غيرها ويتركها.. وهكذا، وقف حامد أمامه مُباشرة وحياه:

- صباحُ الخير

نظر إليه عماد وتجاهله وأعاد نظره مرة أُخرى إلى أوراقه! استشاط حامد وفي غيظ أخذ الأوراق من عماد عنوة ! وصاح فيه:

- أولم تتعلم أن ترد السلام يا هذا !
- أتريد مني أن أترُك نيفون وأتحدث مع أبله مثلك!
- هههههههه.....
- اضحك كما يحلو لك فلن تنم الليلة، أعدك !

شعر حامد برعشة شديدة ملأت ما بين قمة رأسه إلى أخمَص قدميه!

- ماذا تقصد يا هذا ؟ وما هذا الورق ؟

نظر حامد إلى الورق الذي بيده فوجد مكتوبًا في كُل الورقة جملة واحده "نيفون افتحي الباب" ! لم يشعر حامد بنفسه إلا على سريره مُستلق يُحاول النوم ولكن لا يستطيع، انقضى الليل إلا بعضه، وحامد لا يزال يتقلب على سريره يمينًا تارة، ويسارًا أُخرى، وعندما استقر قليلًا على الجهة اليُسرى المواجهه للحائط، انغرس السكين في ظهره !

****

في صباح اليوم التالي، لاحظ القائد صبحي اختفاء حامد عن الأنظار فأرسل أحد العساكر للبحث عنه، وبعد فترة ليست بقليلة، دخل العسكري إلى مكتب القائد صُبحي:

- سيدي .. إن العسكري حامد قد أُصيب بالجنون !
- ماذا تقول أيُها الفتى !
- أُصيب أيضاً بالبُكم، على حد قول زُملاءه .
- أحضره إلى في الحال !

هرع العسكري إلى خارج مكتب القائد، وبعد دقيقتين أتى حاملًا حامد ودلف إلى مكتب القائد.

- هل هو نائم ؟
- لا أدري سيدي، ولكن زُملاءة وجدوه هكذا، وأخذوا يوقظوه ولكن لم يُفلِحوا، ودقات قلبه منتظمة.
- هل عرضتموه على الطبيب ؟
- أجل ..ولكن .
- ولكن ماذا ؟
- الطبيب أخبرنا أنه عجز عن علاجه، وأخبرنا أن نعرضه على شيخ !

كُل هذا وجسد حامد مُلقىً على مكتب المدير، عيناه مغمضتان، ووجهه شاحِب جدًا يوحي بالهلع .

****

بعد عدة أسابيع، تم ترحيل حامد وإعفاءه من الجيش نظرًا لحالته الصحية التي تدهورت، هكذا قيل، أما عن المدير صُبحي فقد عبث الدهرُ في وجهه، لم يعد يستطيع اغماض جفن عينه! عُرِض على الكثير مِنَ الأطِباء، ولكنه لم يتحسن، ظلت حالته هكذا إلى أن تم عزله عن منصبه .

****

بعد انتهاء إحدى التمارين، دخل عماد ليستريح قليلًا من عناء اليوم، فدخل وراءه أحد العساكر وصاح به:

- انتظر يا صديقي، أعلم أنك تزعم رؤية الجان، فهل لك أن تُفسر لي رؤياي ؟

التفت عماد إليه وصرخ بصوتٍ رخيم:

- لولوهههاماوووووو ...

صرخ العسكري صرخه مُدَوِيَة اهتزت لها الأركان! حضَر العساكر من كُل حدَبٍ وصَوب، أخذ العسكري يصرخ في هيستيريه:

- إنه الُحُلم الذي رأيته البارحة !

لاااا أنقذوني منه، لقد أتاني في حُلُمي وصرخ صرختهُ هذه!

جنح الليل، جميع من في المكان نائمون، إلا بعض الحَرَس، شقَ عماد طريقه واخترق أحشاء الظلام، دلف إلى دورة مياه قديمة، أغلق الباب، أخذ يُتمتم :

- والعهد الذي بيني وبينك، أُقسم على أن أكون حارسًا مُخلِصًا لكي، أود أن أطلب منكي طلبي الأخير .. يا ... سيدة نيفون !

****

خبر في إحدى الصُحف الصباحية" عماد مُنير، العسكري المجنون وُجِدت ملابسه في إحدى دورات المياة بعنبر رقم ٣، واختفي العسكري البائس المنكوب إلى الأبد!

تَمَت

مُزحَة

استَيقَظَت الحَاجة "أُم أحمد" مِن نَومِهَا عَلى صَوت رَنِين الهَاتِف، أمسكَت الهَاتِف بِيَدٍ مُرتَعِشَة، وَنَظَرَت إلَى الشَاشَة بَعَينَينِ نَاعِسَتَين، ظَهَرَت مَرَاسِم البَهجَة وَالسَعَادة عَلى قَسَمَات وَجْه السَيِدَة العَجوز بَعدَمَا قَرَأت اسم المُتَصِل عَلى شَاشَة الهَاتِف، إنَّه ابنَها الْوَحِيد، فَلَذة كَبدَهَا، الَّذِي سَافَر مُنذُ فَترَة إلَى بَلَدٍ أجنَبِيَة بِغَرَض العَمَل، وَضَعَت سَمَاعة الهَاتِف عَلى أُذنَهَا، وَضَغَطَت بِإبهَامها المُهتَرِئ عَلى زِر القُبُول:

- السلام عَلَيْكُم .
- وعليكُم السلام .. الحَاجة أُم أحمَد مَعِي ؟

انقَلَبَت قَسَمات وَجهها مِن الابتِسام إلى العُبوس، شَعرَت بِدَقات قَلبَها تَتسارع، بِصَوتٍ مُرتَبِك أجَابَ:

- نَعَم ..أنا وَالِدَة أحمد .
- أُعذِرِيني سَيدَتي .. أودّ أن أُخبركِي ب.. بشأن .. السيد أحمد ..
- ما الَّذِي حَدَث ؟!
- الطائِرَة الَتِي كَانَ يَستَقِلُهَا، هَاجَمَتهَا بَعْض العنَاصِر الارهَابِيَة، مِمَّا أسَفَرَ عَن حَدُوث اختِلال فِي القيادَة .. و.. سَقَطَت فِي المُحِيط .. أقصِد ..سَقَط زُكَامُهَا في المُحِيط !
- .....
- أيُهَا السَيِدَة ؟
- .....
- أمِّي !!

فَتَحَ أحمَد بَاب المَنزِل فِي غُضون ثَوانٍ بسُرعَة فَائِقَة، شَقَّ طَرِيقُه نَاحِية غُرَفَة النَوم الَتِي كَانت أُمُّه قَاطِنَة بِهَا، وَلَكِن هَيهَات، إنَّ الأوَان قَد فَات ..!

بَعدَ سَاعَات ..." تَقرِير طِبِّي (١) "

أُصِيبَت السَيِدَة أُم أحمَد محمود صَبَاحَ الْيَوْمَ بِنَوبَة قَلبِيَة، مِمَّا أدَّى إلَى وَفَاتهَا، وَجاءت النَوبَة فَورَ سَمَاعها نَبَأ وَفَاة ابنَها أحمد..الَّذِي كَان يُمَازِحها !..

" تَقرِير طِبِّي (٢) "

أصيب الأُستاذ أحمد محمود صباح الْيَوْمَ بنوبة قلبية، مما أسفر عن وَفاته، وجاَءت النَوبَة فَورَ عِلْمِه بوَفَاة وَالِدَته !

تَمَت

اشتَقتُ لِأبِي

"قد لا يُفارقنا الأمل .. حتى آخر رمق في حياتنا !"

صباح جميل ومُشرِق، مُشرِق بشَمسِه السَاطِعَة، وبقُلُوب أُسرَةٍ فَقيرَة، على الطَرِيق الفَاصِل بَينَ مَدينة الإسكندرية ومدينة مَرسَى مطروح، كَانت السيارة التي تحملهم تسير:

– خَمِنوا ما المُفاجأة التي أعددتها لكُم يا أولاد ؟

قالها الأب وعلى قسمات وجهه ابتسامة ماكرة، ابتسم الصغيران وصاحا في تلهُف:

– ماذا يا أبي ؟!

نظَر الأبُ إلى زوجته التي بَدى على وجهها علامات الحيرة والتساؤل:

– لِتَكُن مُفاجَأة !"

نَطقَ بِها الأبُ بطريقة سينمائية، زادَت لهفة الصغيرين وأُمهما على معرفة المُفاجأة، وكُل منهم قد غرَق في تخيُلاته وأحلامه ... ابتسم الأب .

****

– لقد وصلنا يا أولاد

قالها الأبُ أمرًا أبناءه أن استعدوا للنزول، هَبطت الأُسرة من على مَتن سيارة الأُجرة والابتِسامه لا تُفارِق ثُغورهم ، فقد كانت هذه التَجربة الأولى للسَفر إلى إحدى المناطق السياحية ، نَظرًا لعدم توافر المَال ، فالوالد لا يتعدى راتبهُ الشهري مائة وعشرون جُنَيهًا !

إنه عامل نظافة، يعمل دوامًا كاملًا .. مُنذُ أكثر مِن عشرة أعوام وهو يدخر بعضًا من راتبه لهذا اليوم! بعدما وصَلت الأُسرة إلى إحدى الأبنية السكنية القديمة نظرت الأُم إلى زوجها وتساءلت:

– أهُنا الشَقة التي سَنَستأجرها الليلة ؟

أجابها وهو يتفقد المكان بعينه :

– غالبًا .. إن لَم يَخِب ظَني

وأشار لهم، أن اتبعوني، صعدوا إلى الطابق العاشر، بعدما تقطَعت أنفاسُهم، فلم يكُن هُناك مِصعَدّ !

– أنا آسف جدًا

قالها رجلٌ بدين، كان يقف في انتظارهم ليعطيهم المفتاح ..

– تُرى كيف صعد إلى هُنا ! "كذلك فكَر الأب .

أخذ الأبُ المفتاح وفتح الشَقَة، انتشرت حبيبات التُراب في أُنوفهم، عطسوا جميعًا مرات مُتتالية!

****

بعد مرور نحو ساعتين من خروج الوالد لِجَلب العَشاء، كانت الشمس قد عادت إلى مرقدها وجَن الليل، تساءلَ الأولاد في ضَجَر:

– أمي .. لماذا تأخر أبي هكذا؟

– أمي .. أنا جائعة جدا !

أجابت الأُم:

- الصبر يا أولاد ..الصبر ..عساه قد تأخر بسبب ازدحام مروري أو ..

الحقُ أنها لم تكُن مُقتنعة بهذا الكلام، وتفوهَت بِه لتشفِ غليل الصِغار ..

- ولكن يا أمي .. لو كان كما تقولين .. لماذا لم يتصل بنا حتى الآن!

ارتبكت الام، واشتعل جسدها حرارة، وانهمر العرق على جبينها، لم تجد ما تقوله..

- أمي .. أنا خائف على أبي، لم نلبث أن نقطن هذه المدينة اليوم أيمكن أن يكون قد ضل طريقه ؟
- حتى لو ضل طريقه بالفعل، لم لا يتصل بنا ويطمئننا عليه؟!!

انفجرت الأُم وصاحت :

- يا أولادي !..الحق أن هاتفه مغلق! انقطع الاتصال بيننا مُنذ كان في المطعم، لقد كان يسألني عن أنواع الطعام الذي تشتهونه ..ثم
- ثم ماذا يا أمي ؟؟
- ثم .. انقطع الاتصال فجأة بعدما سألني عن نوع المشروب الغازي المفضل لكما..!

عَلَا صوت البُكاء والعويل أركان المنزل، انقطع نفس الأم وصغيريها من شدة البكاء

****

قبل ساعتين من ذلك الوقت، وعلى بعد عشرين ميلًا، عند إحدى الحوانيت المطلة على شاطيء البحر ..

- ماذا تطلب يا سيدي ؟
- لحظة من فضلك .. علي أن أستشير زوجتي أولاً...
- إذاً تنح جانبًا ريثما ترد عليك .. من التالي؟
- أهلًا زوجتي ..لقد كنت أفكر يا عزيزتي في إحضار شرابًا للصغار .. هههه لا طبعًا .. هل تعتقدين أنني سأحضر لهم نبيذًا ؟! .. لا لا أنا لستُ أحمقًا لهذه الدرجة.. سأحضر لهم شرابًا غازيًا مثلاً ...لكن فكرة النبيذ مستبعدة هههه....

وفي نفس اللحظة، ثمة رجل يمتطي دراجة نارية في الجوار، لم يُحرك موضع عينيه عن هاتف الرجل الذي كان يحادث زوجته قرب الحانة، وفي لمح البصر .. اختُطِف الهاتف من يد الرجل وهو يضحك مع زوجته على الخط..!

- النجدة ...! النجدة ...!ساعدوني.. هناك لص .. لص..

وفي نفس اللحظة .. اقتربت سيارة أجرة من الرجل المسكين !

- اركب بسرعة

قالها السائق في عجلة، وبدون تفكير .. قفز الرجل في مقعد السيارة الخلفي وانطلقت السيارة بسرعة فائقة، أخذت تأكل الطريق أكلاً صوب الدراجة النارية، ظلت لعبة المطاردة ما يقارب من نصف ساعة! والسائق في صمت تام ..! انعقد لسان الرجل المسكين من أثر الصدمة، بدأت السيارة تدخل وراء الدراجة في مناطق خالية من السكان! والسائق لم يتخل عن صمته ..

- أيها .. ال..سائق ..

لم يحرك السائق ساكنًا !

- أين نحن ال...الآن ؟!

في نظرة ثابتة .. نظر السائق في عيني الرجل من المرآة، وفي نبرة قوية قال:

- لا تخش شيء ياصديقي ..

وتخلل وجهه شبح ابتسامة باهته وقال :

- هل تَرَانا نخطفك مثلاً ؟

انتفض جسد الرجل مع ارتجاف خفيف في أوصاله، وظلت تدور بذهنه عدة تساؤلات " ماذا يقصد ب (تَرانا) ؟

هل هناك أحد غي، استجمع الأفكار برأسه بسرعة ..مستحيييييل!!

- أيها السائق .. أنزلني في الحال ..!

****

بعد مرور ساعة، حَمل شخص على ظهره كيسًا كبيرًا أسود اللون، كان مُتجهًا به صَوب ترعة عَفنة ليقذفه بها، ولم يكن يحمل ذاك الكيس بداخله، سوى رجل لم يُتم عقده الثالث من عمره بعد ..! رجل جاء لقضاء صيفًا مُمتعًا مع أهله، رجل ينتظره الآن طفلين وامرأة على أحر من الجمر، رجل فَتك الجوع بصغيرَيه وهما في انتظاره، رَجل لم تُلطَخ يده بِدماء قَط، رجل مُسالم .. صالح، وأخيراً قُذِف الكِيس في المياة ..!

****

بعد مرور عدة أشهر ..

- أمي .. لِمَ لَم يأتِ والدنا حتى الآن ؟
- أمي .. اشتقتُ لأبي، لقد طال انتظارنا له ألن يأتي ؟ أيُمكِن أن تكون هذه هي المُفاجأة التي أخبرنا به !
- يا طِفلَي .. تحلَوا بالصبر .. حتما سيأتي والدكما يومًا ما ..!

تَمَت

الفهرس

جريمة في بطرسبرج ٧
إذا عبثت الحياة ١٩
أسود بَهيم ٢٧
مملكة الأسود ٣١
طوق النجاة ٤٣
الكنز ٤٧
الوحيد ٥٥
نيفون ٥٩
مُزحة ٧١
اشتقتُ لأبي ٧٥
الفهرس..... ٨٣